الباب الأول

obeikandl.com

obeikandl.com

العِلم والعلماء

العِلم عبارة عن مجموعة من النظريات والخبرات والمهارات المرتبطة بموضوع محدد، فلكلّ علمٍ المجال الذي يتخصّص فيه، ونظرياته الخاصة ، وأهدافه المحددة، وأسلوبه، وقوانينه، فمثلاً هناك علم الطبيعة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وغيرهم من العلوم التي يحمل كل منها صفاته الخاصة به، ويمكن القول أنّ العلم بشكل عام محايد، فلا ينحاز لرأي فرد أو لرأي الأغلبية، لكن يحتاج لدليل علمي صحيح يُظهر الحقيقة، وهو موضوعي؛ فلا يتأثر بالشخص الباحث فيه، كما أنّه دقيق ويعتني بجميع التفاصيل ولا يُهمل أحدها، وتراكمي؛ حيثُ يضيف المعلومات الجديدة الصحيحة إلى المعلومات القديمة والصحيحة أيضاً.

ومن أهم ما يميّز العلم أنّه يتطوّر مع الاكتشافات الجديدة ويصحّح نفسه تلقائياً، ويعتمد العلم في منهجه على الملاحظة والفحص والتجريب ، ثم يتم تصنيف النتائج ومقارنتها مع بعضها البعض، والجدير بالذكر أنّ العالِم الذي يدرُس ظاهرة ما يضع افتراضات لتفسيرها، فإذا ثبت صحّتها تصبح ضمن القوانين والنظريات، ويمكن لهذه النظريات أن تفسّر العديد من المشكلات والظواهر المختلفة، كما أن من شأنها تيسّير سبل الحياة إذا ما تم توظيفها بالطرق الصحيحة، والعلماء فهم المختصون الذين يعملون جاهدين لتوظيف العلم في خدمة الإنسانية، فمن العلم ما يُعمِّر

ويُطوّر، ومنه ما يُدمّر ويُفسد، ويعود ذلك إلى طريقة استخدامه، فالعلم الذي يجب أن يسعى إليه العالِم هو ما ينفع الناس استناداً إلى قول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: (اللهمّ إني أسألك علماً نافعاً).

وحين نسأل من هم العلماء يكون الجواب ما قاله الإمام ابن القيم في وصف أهل العلم ، حيث قال : فقهاء الإسلام ، ومن دارت الفُتيا على أقوالهم بين الأنام ، الذين خُصّوا باستنباط الأحكام ، وعُنوا بضبط قواعد الحلال والحرام ، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء ، بهم يهتدي الحيران في الظلماء ، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب ، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب ، قال تعالى (يا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللّهَ وَأطِيعُوا الرّسُولَ وَأوْلِي الأمْرِ مِنكُمْ فإن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فرُدّوهُ إلَى اللّهِ وَالرّسُولِ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ باللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) وقال بعض السلف : وهم الطائفة التي نفرت لطلب العلم ، والتفقه في الدين كما جاء في القرآن(فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلّ فِرْقَةٍ مّنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقّهُوا فِي الدّينِ وَلِيُنذِرُوا قوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلّهُمْ يَحْذَرُونَ) وهم الطائفة المنصورة ، وأهل الحديث ، كما قال الإمام أحمد وهم رأس الجماعة ، وأيضاً الذين أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بالرجوع إليهم وأمرنا الله سبحانه وتعالى بذلك .

يقول الآجُرّي في بيان من هم العلماء : علامة من أراد الله عز وجل به خيرا سلوك هذه الطريق : كتاب الله عز وجل وسَنَن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسَنَن أصحابه رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان رحمة الله تعالى عليهم وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد ، إلى آخر ما كان من العلماء ، مثل الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل والقاسم بن سلام ، ومن كان على مثل طريقهم ، ومجانبة كل مذهب لا يذهب إليه هؤلاء العلماء .

هؤلاء هم المتمسكون بالسنة ، الثابتون عليها ، الذين لا تُرضيهم كثرة الجموع ، ولا يغرهم ثناء الناس عليهم ، بل هم ثابتون على سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم لذلك حين جاء رجل إلى مالك بن أنس وهو إمام دار الهجرة فقال له : يا أبا عبد الله أسألك عن مسائل فسأله عن ثلاثين مسألة ، فلم يُجب مالك إلا في ثلاث ، وفي سبع وعشرين قال : لا أدري فقال له : يا أبا عبد الله أضرب إليك أكباد الإبل من العراق لأسألك ، فتقول لي في سبع وعشرين : لا أدري فقال : اذهب وأخبر مَن وراءك أن مالكاً لا يدري .

أهمية العلم وأهله:

إن الحديث عن العلماء حديث عظيم؛ فهو حديث عن أعلام الأمة، وحافظي الملة، الناطقين بالكتاب والسُّنة، القامعين لكل هوًى وبدعة،

المحذرين من الشيطان ومِن غيّه وعمّن بهم شفاءٌ ودواء للأدواء والأمراض، التي تحل بالناس، في قلوبهم، وفي أديانهم، وفي مجتمعاتهم لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لما هلك صاحب الشجة، الذي سأل أصحابه حين أصابته شجة في رأسه، فقالوا: لا نجد لك رخصة عن الغسل فاغتسل فمات، فذُكِر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ فسؤال أهل العلم، والصدور عنهم، هو شفاء ودواء؛ لذلك أمر الله جل وعلا به في غير آية من كتابه، فقال سبحانه: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) فأهل العلم يُصدَر عنهم، ويُورد إليهم، يُسألون ويُستفتون، ومنهم يُتعلّم العلم، ومنهم يُتعرّف على الأحكام، فهم الموقِعون عن رب العالمين، وهم المبلغون لسنة سيد المرسلين، محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين يقول ميمون بن مهران في بيان حقيقة أهل العلم: إنهم في البلد كالماء العذب أي أن الناس يردون إليه وكما قال الحسن: الدنيا ظلمة إلا مجالس أهل العلم ،والناس بدون أهل العلم يَتخبّطون في الجهالات، ويقعون في المهالك والحفر، ولا يجدون طريقًا يتنسّمون به السلامة، ويصلون به إلى المراد والغاية وبترك العلم وأهل العلم يَتجرّع الناس ماءً أجاجاً، فلا يروون من عطشٍ، ولا يسلمون من تعبٍ، ولا يتخلصون من عطبٍ وهو سبب للنجاة؛ فإن

أهل العلم أمناء الله على وحيه لذلك قال الله جل وعلا: (ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (أُوْلَئِكَ الّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) فهذه الآية في أنبياء الله ورسله، ومن حذا حذوهم، واقتفى سنتهم، وأخذ من حياضهم، وأخذ من سنتهم لذا جاء في بعض الآثار: أن العالم أمين الله في أرضه ، فدرجة أهل العلم عالية، فهم في أنفسهم خاشعون لله، مخبتون له، متضرعون لذلك يقول الله جل وعلا: (إِنّ الّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجّدًا)وأهل العلم هم الذين يكون بهم الانتفاع، ويكون بهم النجاة،والخير، إذا ادلهمت المدلهمات، ونزلت المعضلات، وتوالت المصابات، فالناس يتخبطون، وأولو العلم بإذن الله جل وعلا ناطقون بكتاب الله يقول الله سبحانه: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ) نقل أهل التفسير كما سمعنا من الشيخ أن (أُوْلِي الأَمْرِ) هم أولو العقل، وأولو الفقه في الدين .

وبهلاك العلماء يهلك الناس، كما سمعنا قول سعيد بن جبير، قيل: ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك علمائهم وهلاك العلماء كما أنه يكون بموتهم، فإنه يكون أيضاً بتسلط المتسلطين عليهم؛ بالوقيعة بينهم، والتنفير منهم، والخوض في أعراضهم، والتشكيك في نياتهم، وإرادة

إبعاد الناس عنهم، وصرف القلوب إلى الأهواء والبدع، وإلى الأقوال التي لا سند لها من كتاب الله، ولا من سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف لا، وقد قال أهل التفسير في أن موت العلماء هو المراد بقول الله جل وعلا: (أوَلَمْ يَرَوْا أنّا نَأْتِي الأرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أطْرَافِهَا) جاء عن ابن عباس أو غيره أنه موت العلماء لذلك قال القائل:

الأرْضُ تَحْيَا إذَا مَا عَاشَ عَالِمُهَا وَإنْ يَمُتْ عَالِمٌ مِنْهَا يَمُتْ طَرَفُ

كَالأرْضِ تَحْيَا إذَا مَا الْغَيْثُ حَلّ بِهَا وَإنْ أبَى حَلّ فِي أكْنَافِهَا التَّلَفُ

والعلم ضرورة من ضرورات الحياة كالمأكل والمشرب وغيرها من الأمور، وهوعامودٌ من أعمدة بناء الأمم وتقدُّمها؛حيث يقضي العلم على التخلف والرجعية، كما يقضي على الفقر والجهل، وغيرها من الأمور التي من شأنها أن تؤخّر الأمم، ويساهم في إنتاج وسائل تساعد الإنسان على مواكبة مختلف تطورات الحياة، كما من شأنه أن يصنع مستقبلاً مُشرقاً للفرد وعائلته، بالإضافة إلى توفير المعيشة الكريمة والحياة الراقية، وبالعلم يستطيع الإنسان أن يواجه المشكلات التي يقع فيها، وأن يكسر مختلف الحواجز التي تواجهه وتقف في طريقه، كما يستطيع بالعلم أن يعرف حقوقه وواجباته في المجتمع.

والعلم إرث الانبياء، والعلماء هم ورثتهم، ويعد العلم خير سلاح يمتلكه الفرد للصمود في وجه الأعداء، ومن فضله أنّ صاحبه ينجو من الخديعة، كما أنّه يحرس صاحبه ويبقى معه حتى مماته، والجدير بالذكر أنّ العلم لا يفنى، وإنما يبقى ما بقيت الأمم ويتطوّر، كما من شأنه تقريب المسافات البعيدة، أما دور العلماء في المجتمع فيكمُن في إيجاد حلول للعديد من المشاكل التي يواجهها الأفراد، فعلى صعيد التعليم وتطوير شخصيات الأفراد، فقد ساهم العلماء في معرفة طرق التفكير المختلفة التي تساعد في حلّ مختلف المشكلات، كما ساهموا في تعليم الطلاب أساليب تعلم جديدة تُمكّنهم من التفوّق دراسياً، وقد توصل العلماء إلى طرق للتغلب على الاكتئاب، والقلق، والصدمات، ومختلف أنواع الإدمان، كما ساعدوا في معرفة طرق تكوين علاقات اجتماعية بشكل أفضل؛ ممّا أسهم في تمتُّع الأفراد بحياة أفضل، وقد قدم العلماء حلولاً كثيرة ومتطوّرة لعلاج العديد من الأمراض، كما قدّموا حلولاً سهّلت حياة الأفراد وعملت على تطويرها.

أهمية العلم والعلماء في الإسلام

العلم هو النور الذي يُخرج الناس من الظلمات، وهو الوسي والأمة الإسلامية فيما تمر به من ظروف أليمة بحاجة ماسة لمن يقودها نفسياً من داخلها ، وبحاجة إلى من يجدد فيها روحها ويثبت فيها قيمها ،

ويعلي فيها من شأن مبادئها وثوابتها ، وأن يكون ذلك بشكل واقعي عملي واضح كما تحتاج إلى من يحفظ لها هويتها ويرفع في عيون أبنائها قدر ثقافتها ، ويهيئ مواطنيها لتحمل مسئولياتهم والقيام بدورهم كمسلمين صالحين ومؤمنين عابدين .

كما تحتاج تلك الأمة إلى من يعيد لها ثقتها في نفسها ، ويربطها بربها ، ويحيى فيها روح الإيمان ، ويجدد فيها أمر دينها كل ذلك وغيره يجتمع ويصير مرهوناً بدور علمائها ودعاتها ، فهم المرشحون للقيام بذاك الدور الأعظم في تلك الفترة العصيبة ، بما عرفوه من علم وفهموه من دراية عن منهاج دينهم وقيمة أمتهم والمسئولية أمام ربهم وبرغم الأحداث العاصفات التي تحدث للأمة فإنه لا يزال حتى الآن هناك البعض من العلماء والدعاة يرتضون لأنفسهم بالقعود والخمول في أفنية مجالسهم المنغلقة على أنفسهم رافضين تحمل مسئولياتهم ومواجهة مشكلات أمتهم بشجاعة ووضوح ولايزال هناك من العلماء والدعاة من هم بمعزل بعيد عن أفراد هذه الأمة وأبنائها ولا يزالون بعيدين عن حمل هم المسلمين في بقاع الأرض إضافة إلى كونهم في منأى عن خلطة الناس ومشكلاتهم وآلامهم سوى في درس علم أو حلقة تعليم منغلقة.

كما لايخفى أن هناك الكثير من أولئك العلماء لا يتحدثون إلى الناس بلسان الناس ولكن يخاطبونهم خطاباً إما أن يكون انعزالياً بحتاً أو

أصولياً محضاً ، حتى غدا المتابع لأحوال أمتنا يلاحظ مدى بعد الشارع المسلم عن علمائه كما يلاحظ تراجع دورهم المنوط بهم وهامشية هذا الدور في قطاعات بالغة الأهمية في حياة الأمة من قضايا الناس ، وما يتعلق بالمرافق الثقافية والتنموية ، وحيث لا ترى مشاركة العلماء والدعاة في كثير من الأعمال ويندر أن يستشاروا في قرارات داخلية أو خارجية هامة فقد تأكد ذلك المعنى من تحييد دورهم الذي نرى بعضهم وللأسف رضو به !.

إن كل ذلك قد يؤدي إلى فصل الدين عن واقع حياة الناس وعزله عن التأثير في أمر معاشهم وما قد يترتب على ذلك من أثر خطير يزلزل المعاني التي تربط الناس في معاشهم بدينهم وقد نجد الكثير من المعاذير لقطاع واسع من العلماء والدعاة إلا أننا يصعب أن نجد معاذير لمن أتيحت لهم الحرية في التواصل مع الناس وترسيخ معاني الشريعة في قلوبهم ، وبذل النصح ليل نهار لجميع أفراد أمتهم ، والسعي الدؤوب في سبيل توصيل كلمة الإسلام للبيوت والمؤسسات ومحاولة تبوء مكانة ذات أثر في كل ما يحيط بنا من عوامل مؤثرة ومن شأن العمل الإسلامي أن يختلف مع غيره من الأعمال الحزبية والفئوية ، ومن أهم تلك الاختلافات أن الداعية إلى الله أو العالم لا يصح أن يكون عنصراً تائهاً أو

إضافياً أو زيادة عدد فحسب ، كما لا يصح أن يكون خافت الأثر أو باهت اللون .

إن دور العالم والداعية إلى الله يظهر في التأثير الإيجابي للإصلاح ، والدعوة للبناء دائماً ، والعمل على تجفيف منابع الآلام التي تصيب المؤمنين فقد روى مسلم عن أنس قال كان بالمدينة فزع فاستعار النبي صلى الله عليه وسلم فرساً لأبي طلحة يقال له مندوب فركبه فقال ما رأينا من فزع وإن وجدناه لبحراً ، فانظر إليه صلى الله عليه وسلم كيف سارع بالنفرة والهبوب السريع إلى موطن الفزع حيث فزع الناس وما إن كاد الناس يخرجون ليعرفوا الخبر حتى وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عائداً يطمئنهم قائلاً: مارأينا من فزع ثم يسليهم بمدحه للفرس الذي يركبه قائلاً وإن وجدناه لبحراً وقال علي رضي الله عنه: لما حضر البأس يوم بدر اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أشد الناس ما كان، ولم يكن أحد أقرب إلى المشركين منه، وعنه من طريق ثان قال: رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أسد الناس بأساً (رواه أحمد)، فالقائد هنا صلى الله عليه وسلم هو أقرب الناس للمواجهة وهو أحرص الناس على الشهادة وهو أشجع الناس عند اللقاء.

وعن البراء: أن رجلاً من قيس سأله: أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، كان هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، وفرت الأعراب ومن تعلم من الناس، ولقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: أنا ابن عبد المطلب أنا النبي لا كذب، وفي حديث: كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع ولا أنجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إنه دور العالم والداعية إذن وقت الملمات والأزمات والمشكلات ، أن يثبت الناس ويعيد الثقة إليهم ، وأن تتمثل فيه معاني المنهج الذي يرعاه ويعلمه للناس والأحاديث السابقة وإن كانت تبين موقف الرسول في الحروب والغزوات فإننا فقط هنا نستأنس بها لنبين كيف كان يتحمل دوره صلى الله عليه وسلم بلا وجل أو خوف أو تردد ، والمواقف الآن التي ندعو إليها العلماء ليست مواقف مواجهات أو تضحيات بالأنفس بقدر ماهي مواقف إصلاح وتأثير وقيم لتقوية الداخل في مجتمعنا المسلم والقضاء على آفاته وتصويب أدائه وتربية أبنائه وإعادة الوعي المفقود والفهم الإسلامي الصحيح الغائب لأفراده في مختلف الميادين .

إن رؤية بعض العامة لعالم أو داعية قد ارتضى بالعيش الهنىء الرغد والرفاهية وانكب على جمع المال والتكسب ، وغفل عن آلام أمته ومصائبها ومشكلاتها ومعاناة إخوانه وأبناء عقيدته ، فلم يعد يذكرها حتى في أحاديثه أو كتاباته أو خطاباته ، ويكتفي بمجرد حديث الوعظ ضعيف الأثر ، ليترك أسوأ الآثار عليه وعلى غيره من الناس ، إذ يجعله مناطاً للقياس على شأنه وشأن غيره ، وإن استشرى ذلك القياس على تلك الحالة فقد نجد أنفسنا أمام ماهو أكثر من ضياع معنى المسئولية الشرعية والتاريخية لتلك الأمة ، إن المأزق عندها سيصير خطيراً وعلى حافة الهاوية وأكثر ما يجب على الدعاة والعلماء أن يولونه اهتماماً في تلك الأيام أن يولوا اهتماماً بالعلاقة بربهم إذ إنها الدافع الأكبر في التثبيت وتسديد الأفعال والمباركة في القوة والقدرة وتوجيه الاختيار نحو الأصلح الذي قد يخفى على الناس .

وكأني أنظر إليه صلى الله عليه وسلم وهو يدعو ربه عشية بدر ويجأر إليه بالدعاء ويلح ويبكي حتى يشفق عليه أبو بكر من ذلك قائلاً له: يا رسول الله إن الله منجز وعدك ولازال عمر بن الخطأب يخطب في جنده قبل اللقاءات قائلاً لهم: إننا لا ننتصر على عدونا بعدد ولا عدة وإنما هو التوكل على الله والثقة به فكونوا عندها ولا تترددوا.

وفي فتح مصر لما تأخر عليهم الفتح أرسل إليهم أن انظروا إلى ما خلفتم من ذنب بغير توبة فإنه مانعكم، وانظروا إلى ما تركتم من سنة بغير عمل فإنما أنتم ممنوعون بركتها فعادوا إلى أنفسهم، فرأبوا الصدع فحل النصر عاجلاً غير آجل.

كذلك يحتاج الداعية إلى تركيز فكره وإرادته نحو تحديد الإجابة عن سؤالين هامين هما (ماذا نريد؟ وكيف نريده؟)، فالأول سؤال حول الهدف من التصرف لكل عمل من أعماله والثاني هو سؤال حول الوسيلة المستخدمة للوصول إلى ذلك الهدف، وقد يضيع في زحمة الآلام المتوالية لأمتنا الشكل المحدد لتحديد الهدف نتيجة الخوف أو التردد أو عدم التركيز أو عدم تصور المآلات التي ستصير إليها الحال ، وواجب العالم والداعية هنا أن لا يجعل نفسه فريسة سهلة لتلك المعوقات وأن يستل نفسه خارجها ليستطيع تحديد هدفه بوضوح والتركيز على طريقة نيله بل إن قدرة القدوة على الاحتفاظ بطريقة هادئة ومتزنة وعاقلة وحكيمة وواقعية في أثناء الأزمة هي مثمنة عند أصحاب الفكر الرشيد وهي الوصف الأهم من صفات العالم العامل المؤثر .

إن الظروف الحالية للأمة الإسلامية قد تؤدي لفقدان التوازن في لحظة من اللحظات ، وإذا كان من الصعب بمكان منع المصائب والآلام من الحدوث فإنه ليس أقل من أن يعتبر علماؤنا ودعاتنا في برنامجهم

العملي ما يمكن أن نسميه توقع الأزمة وهي توقع لما يمكن أن يحدث واقعياً لأمتهم في ظل الواقع المحيط كذلك ينبغي أن يسأل كل عالم وداعية نفسه عن مكانه ومقامه من التأثير في جمهور الناس ، وماذا يمثل لهم ، ومن أجل معرفة قيمته الحقيقية ينبغي عليه بكل تجرد أن يقيم أداء نفسه فيما مضى من عمره وماذا أنجز وكم استطاع هداية قوم أو تعليمهم وكم استطاع تغيير نفوس أو تربيتها وماهو الأثر الإيجابي الصائب الذي تركه في مجتمعه ، وماهي أوجه التقصير والخلل في أدائه وماهي أسباب نفور الناس منه إن كان وماهي طرق عودته للمضمار من جديد والعالم التقيّ الموفق يوفقه الله سبحانه وتعالى إلى السداد في الخطى والتوفيق في الرأي والحكمة في القرار والشمول في التصرف والمرونة في الأداء والثبات في الأمر كله.

مَنْ هم العلماء المعنيُّون بالفضل والتشريف؟

إن ورثة الأنبياء هم الذين يرثونهم علماً وعملاً، ويقتدون بهم في السرِّ والعلن، ويلتزمون منهجهم في الغضب والرضا والمنشط والمكره، ولا يكونوا كمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، أو كمن أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ والعلم الذي هو مصدر تشريف الله للعلماء علمان ينبغي أن يجتمعا في العالم، وكذلك العمل، فأما العلم فعلمٌ بواقعه الذي يعايشه وعلمٌ بحكم الله الواجب فيه، وكذلك العمل يجب أن يكون عملاً بمقتضى العِلْمَيْن

والعلم الذي سبب التشريف وعلة التكريم قد يكون سبباً لشقاء الدنيا والآخرة، وموجباً للذم والمهانة عند الله وعند الناس إذا لم يقترن به من العمل ما ينفع صاحبه وأمته من بعده، بل قد يكون صاحبه من أول مَنْ تسعَّر بهم النار فمن الأهمية بمكان التأكيد على أن مَنْ يجتهدُ فيما يطيق من العمل الصالح ونفع الأمة بما معه من العلم هو في أشرف المنازل وأسناها، حتى ولو لم يكنْ من المتبحرين في علوم الشريعة أو الخائضين في لجَّتها، ولهذا لما ذُكر معروف الكرخي في مجلس الإمام أحمد فقال بعض من حضر: هو قصير العلم، فقال له أحمد: أمسكْ عافاك الله! وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف؟! ولعلَّ أهم صفات العلماء الربانيين الذين يُنتظر منهم أن يقودوا الأمة ولاسيما عند الاختلاف والاضطراب صفة الخشية، التي جعلها الله من أخصِّ صفاتهم كما في قوله تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، لذلك قال الإمام أحمد لابنه عبد الله لما سأله عن معروف هل معه من العلم شيء؟ قال: معه رأس العلم: الخشية ومردُّ ذلك أن أهل الخشية من العلماء هم الذين يصدرون فيما يقولون ويفعلون عمَّا أداه إليه اجتهادهم، دون مداهنةٍ لأحد أو خوفاً من أحد، ومن غير أن يتطلعوا لعرضٍ زائلٍ مهما بلغ، فإن مقتضى خشية الله في قلوبهم أن لا يلتفتوا إلى أهوائهم ولا أهواء غيرهم

من الخاصة أو العامة ومتى ما كانت مواقف العالم كذلك كانت أقرب إلى الصدق والثبات، وأحرى أن تطمئن لها النفوس وتجتمع عليها القلوب.

أقسام العلماء

رَفع الله منازل علماء الشريعة، وجعل لهم قدر رفيع في الدُّنيا والآخرة؛ (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) ؛ فكيف لا يكون لهم ، والواحد منهم قائم مَقام النَّبي في تبليغ دين الله إلى عباده؟! هُم أتْقى الخلق لله، وأنصح الخلق للخلق؛ قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فالخشية من العلماء لله خوفٌ مقرونٌ بمعرفة، وعلى قدر العلم الحقيقي والمعرفة الحقَّة يكون الخوف والخشية ؛ لذا كان أكمله خشيةً لله النَّبي؛ قال صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّ أتقاكُم وأعْلَمَكُم باللَّه أنا؛ رواه البخاري من حديث عائشة، وأخبر الله تعالى أنَّ كلَّ من يخشى الله فهو عالِمٌ؛ فالعلم الحقيقي هو الخشية يقول ربنا تعالى: (أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فأهلُ الخوف لله والرجاء له العاملون هم أهل العلم، الذين مَدَحهم الله والعِلْم الممدوح الَّذي يسعد به صاحبه هو العلم الذي يُورثُ العمل الصالح؛ فعلاً للواجبات والمستحبات وتركًا للمنهيَّات، مع إقبال على الرب، وتواضع للخلق؛ فهذا العِلْم الَّذي جاءت النصوص بالثناء عليه وعلى صاحبه، أمَّا مُجرَّد العلم

المجرد من العمل، العلم الذي لم يظهر أثره على صاحبه، بل يعمل بخلافه فهو عِلْم مذموم؛ فلذا استعاذ منه النَّبيُّ؛ فعن زيد بن أرقم، كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلم يقول: (اللَّهم إنِّي أعوذُ بك من عِلْم لا ينفعُ، ومن قلب لا يَخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها)؛(رواه مُسلم) وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ عن انحراف علماء أهل الكتاب، فلم يَكُن العلم الذي معهم مانعاً للكثير منهم من الانحراف عن الصِّراط المستقيم؛ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ) ؛ فقد يصُدُّ العالم عن سبيل الله بمقاله أو حاله؛ لمَّا حاد عُلماء أهل الكتاب عن الطريق، ولم يعملوا بما معهم من عِلم، لم يكن العلم الذي يحملونه شافعاً لهم ومُغنياً عنهُم من الله شيئًا، بل وصفهم ربُّنا عزَّ وجلَّ بوصْفٍ مُنفِّر؛(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) وكذلك من ضلَّ من عُلماء هذه الأمَّة هم من أوَّل النَّاس عذاباً يوم القيامة؛ ففي حديث أبي هريرة في أوَّل الناس يُقضى يوم القيامة عليه: (رجُلٌ تعلَّم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به فعَرَّفه نِعَمه فعَرفها؛ قال:فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن؛ قال: كَذَبْتَ، ولكنَّك تعلَّمت العلم؛ ليُقال: عالم، وقرأت القرآن؛ ليقال: هو قارئ؛ فقد قيل، ثمَّ أمر به

فسُحب على وجهه حتَّى ألقي في النَّار)؛ (رواه مسلم)؛ فالعلم يطلب لا لذاته، بل لأنَّه وسيلة إلى العمل الصالح الذي يرضاه الله، فإذا لم يُورثِ العملَ الصالح، لم ينتفع به صاحبه كما أنَّ علماء الشريعة مُتباينون في علمهم، فهم أيضاً مُتباينون في مَقاصدهم؛ فهم أقسامٌ بحَسَبِ مقاصدهم ونظرتهم؛ قال الشيخ محمد العثيمين في الشرح الممتع: العلماء ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الأول: علماء دولة، والثَّاني: علماء أمَّة، والثالث: علماء ملَّة؛ فعلماء الدولة هم الذين ينظرون ماذا تريد الدولة، فيلتمسون لهم أدلَّة متشابهة، أيْ: يتبعون ما تشابه من الأدِلَّة؛ إرضاء للدَّولة، ولهم أمثلة كثيرة عَبْر الزَّمان، وحينما ظهرت الاشتراكية في بعض الدُّول العربية؛ صار علماء الدولة يأتون بالمتشابهات، ويغرسون النُّصوص، ويلوُون أعناقها؛ من أجل أن تُوافقَ رأي الدولة، أمَّا علماء الأمة، فهم ينظرون ماذا تريد الأمَّة، ويمشون به، أمَّا عُلماء الملَّة، فهم الذين لا يريدون إلاَّ أن يكون دين الله هو الأعلى، وكلمته هي العليا، ولا يبالون بدولة ولا بعوام ؛ فعلماء الأمَّة الذين هَمُّهم إرضاء العامة؛ طلباً للحَظْوة عندهم، والتقدير تارة، أو خوفاً من ثلبهم وتنقصهم والتشهير بهم تارة أخرى.

ومن صفات عُلماء الأمَّة أنَّهم إذا كان الحكم الشرعي يوافق هوى العامة وما يعمل النَّاس عليه، صرَّحوا به وأذاعوه، وإذا كان يُخالف

هوى النَّاس، حادوا عن التصريح بالجواب؛ فتارة يقولون المسألة من مسائل الخلاف، وتارة يحيدون عن الجواب إلى جواب آخر؛ فهؤلاء علماء السوء يحرفون دين الله تعالى وشرعه؛ ففيهم شبه من أحبار اليهود، ومثلهم عُلماء الدولة، فكلتا الطائفتين لا يُقتدى بها، ولا يقلدُّون في مسائل العلم، باعوا دينهم بعرض من الدنيا؛ فخابوا وخَسِروا إن لم يتداركهم الله بتوبة قبل الموت .

إليكم بعضَ صفات علماء الملَّة التي يُعرفون بها؛ فعلماء الملَّة جُزءٌ من الأمَّة يقومون بمُهمَّة النبوة، فهم ورثوا عن النَّبي العلم والعمل، فآثارُ الصَّلاح والسُّنة ظاهرة عليهم، لهم نصيب من التَّعبُّد، لهم سمت ووقار يُعرفون به، عُلماءُ الملَّة يخالطون العامَّة والخاصَّة؛ طلباً للإصلاح يبذلون النُّصح للولاة مع التلطُّف فيه ، يثنون على مواطن الخير؛ لأنَّهم يعلمون أن هذا مظنَّة قبول الحق، فتارة يقبل نُصحهم وتوجيههم؛ فيفرحون بذلك، وتارة لا يُقبلُ منهم؛ فيصبرون ويعلمون أنَّه لا يجب عليهم أكثر من الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وقد بذلوا وُسعَهم في ذلك، علماء الملة يتَوَلَّون الولايات الشرعيَّة، هذا مسلكهم من لدُن القرون الفاضلة إلى زمانِنا هذا؛ طلباً لتحصيل المصالح وتكثيرها ودرءاً للمفاسد وتقليلها؛ فينفع الله بهم ويكتب على أيديهم الخير الكثير، ويدرأ بهم شرورًا عظيمة، لسان حال الواحد منهم يقول: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ

إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) ويداورون الخاصَّة والعامة، لكنهم لا يداهنونهم على حساب دين الله وشرعه؛ فالمداراة صفة مَدْح، والمداهنة صفة ذَمٍّ؛ فالمداري يتلطَّف بالشخص حتَّى يستخرج منه الحقَّ أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف بالشخص، ولا يُريد أن يكدره حتَّى لو أدَّى ذلك إلى إقراره على باطِلِه، وتركه على هواه وإذا كان يحتاج الأمر إلى وقفة والتصريح بالحقِّ وإن كان يخالف الأهواء يُصرِّح علماء الملة بالحق، فيشرق بالحق من يُشرق من أهل الزيغ والفساد؛ لذا نجد بين فترة وأخرى تُشنُّ حملات إعلامية على علماء الملَّة، ويَتَواصى فُسَقة المسلمين وأهل النِّفاق منهم مع كَفَرة أهل الكتاب على التشنيع على علماء ربَّانيِّين، والتقوُّل عليهم وتحميل كلامهم ما لا يحتمل؛ تارة لجهلهم بدلالات الألفاظ؛ فلا يفرِّقون بين الحكم العام والخاص، وتارة عن سوء قصد، وإنْ كنَّا نكره ذلك ونتألم لما نسمعه من بعض من لا خَلاقَ له؛ قدحاً في عُلمائنا، مع أنَّنا نعلم أنَّ هذه سنة الله الجارية بين الرُّسل وأعدائهم؛ فتجري هذه السنّة على حَمَلَة الإرْث النَّبوي؛ فلهم نصيبٌ من هذه السنة الكونيَّة، لكن في نِهَايَة المطاف الذكرُ الحسن والثَّواب الجزيل؛ وعد الله لهم ولغيرهم من العاملين الصادقين.

في ظلِّ اختلاط الأمر عند البعض وتعارض الفتوى، وكلٌّ يدَّعي أنَّه المحق وأنه هو الذي على هُدًى وسنة، وغيره على خلاف ذلك؛ في ظلِّ تصدر من ليس من العلماء ولا طُلاَّب العلم للتَّوجيه والتحليل والتحريم، عَبْر وسائل الإعلام المختلفة؛ في ظلِّ تقديم فضائيات الفِسْق البَعْضَ على أنَّه العالم المجتهد، ومحاولة جعله محلَّ الصدارة، وهو ليس أهلاً لذلك؛ في ظلِّ مُحاولة تهميش عُلماء الملَّة من فضائيات الفِسق؛ لأنَّ أراءهم تخالف الأساس الذي قامت عليه قنواتُهم يَطرحُ هذا الموضوع مَنْ هو العالم الذي نُصغي إلى قوله، ونعمل بفتواه؛ يُطرح هذا الموضوع؛ لِيُحدد الواحد منَّا من هو العالم الذي نقتدي به ونتلقَّى ديننَا منه؛ فقد تبيَّن لنا بدلالة كتاب ربِّنا وسُنَّة نبيِّنا أنه ليس كلُّ عالم ممدوحاً يؤخذ منه، بل منهم المذموم وإنْ كان عنده ما عنده من العلم الشَّرعي، وإنَّما العالم الممدوح هو الناصح لله ولكتابه ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصَّتهم، العالم الذي يظهر أثرُ العلم على أقواله وأفعاله، العالم الذي هَمُّه صلاحُ النَّاس واستقامتهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم، العالم يُقدِّم رضاء خالقه على رضاء المخْلُوقين، يُقدحُ في عِرضه، ويتحمَّل الإيذاء؛ فداء لَدينه ونصحاً للمسلمين، يقوم بواجب البيان وقت الحاجة.